

كُتُبُ
كَلِمَاتِي

عِيْنَةٌ مِّنَ الرِّوَايَةِ
(لِلتَّصْفِحِ وَالْإِطْلَاعِ)

ذُو الْبَدَلَةِ الْبُنِّيَّةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أبحاثنا ككريستي

ذو البدلة البنية

طُبعت للمرة الأولى باللغة الإنكليزية عام ١٩٢٤

ترجمة: محمود الخطيب

مراجعة الترجمة: نبيل عبد القادر البرادعي

تحرير: رمزي رامز حسون



الأجبال
للترجمة
والنشر

AJYAL Publishers

هذه الترجمة تضم النصّ الكامل لرواية أغاثا كريستي
المنشورة أول مرة عام ١٩٢٤ بعنوان

The Man in the Brown Suit

Copyright Agatha Christie 1924

حقوق الطبع محفوظة للناشر:
الأجيال للترجمة والنشر والتوزيع

يُمنع نقل أو تخزين أو إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب
بأي شكل أو بأية وسيلة: تصويرية أو تسجيلية أو إلكترونية
أو غير ذلك إلا بإذن خطي مسبق من الناشر

Arabic edition published by AJYAL Publishers
e-mail: books@al-ajyal.com

الطبعة الخامسة

٢٠٢٠

استهلال

وقفت الممثلة الروسية نادينا (التي أثارَت الاهتمام في باريس) على خشبة المسرح لتحية المشاهدين وانحنت لهم مرة ثم أخرى، ومضى الفرنسيون المتحمسون يضربون الأرض بأقدامهم تعبيراً عن إعجابهم بينما كانت الستارة تُسدَلُ محدثةً حفيفاً ومُخَفِيةً وراءها بريق الألوان الحمراء والزرقاء والبنفسجية للديكور الغريب.

غادرت الممثلة خشبة المسرح بثوبها الأزرق الفضفاض، وتلقاها رجلٌ ملتجٍ مرحباً بحماسة. كان ذلك هو المدير الذي صاح قائلاً: رائعة يا صغيرتي، رائعة. لقد تفوقت الليلة على نفسك.

تقبلت السيدة نادينا هذا الثناء بما خلّفته لها العادة من قلة احتفاء بذلك، وأسرعت إلى غرفة تغيير الملابس حيث تكدست باقات الزهور في كل مكان بلا ترتيب، وحيث كانت الملابس ذات التصميمات العصرية معلقة على المشاجب، وكان الجو حاراً يعبق برائحة الأزهار والعطور.

وأسرعت الوصيفة المسؤولة عن ملابس نادينا لمساعدة سيدتها وهي تتحدث على نحو متواصل وتغدق عليها المديح المقيتة، لكن

دقات على الباب قطعت عليها سيل مدائحها، فذهبت لترى مَنْ
بالباب ثم عادت وهي تحمل بيدها بطاقة.

- أتريد السيدة استقبال هذا الرجل؟
- دعيني أنظر.

مدت الممثلة يداً كسلى، ولكن ملامح الاهتمام المفاجئة
بدت في عينيها عندما رأت الاسم المكتوب على البطاقة: «الكونت
سيرجيوس باولوفيتش».

قالت: نعم، سأقابلة. أعطيني هذا الثوب الفضفاض الأصفر
بسرعة، وعندما يأتي الكونت يمكنك الانصراف.

- حسناً يا سيدتي.

أحضرت الوصيصة الثوب الفضفاض، فارتدت نادينا بسرعة
وجلست تبسم مع نفسها وهي تنقر بيدها على زجاج طاولة الزينة
دقات بطيئة.

أما الكونت فقد سارع لاغتنام الفرصة التي مُنحت له لرؤيتها.
كان رجلاً متوسط الطول، ونحيفاً جداً، وأنيقاً جداً، وشاحباً جداً،
وسمماً لدرجة غير عادية. أما ملامحه فلم يكن فيها ما يميّزه كثيراً؛
كان رجلاً يصعب تمييزه ثانية إذا ترك المرء سلوكه المميز جانباً.
وقد انحنى بتهديب مبالغ فيه قائلاً: سيدتي، إنها فرصة رائعة حقاً.

هذا ما استطاعت الوصيصة أن تسمعه قبل مغادرتها الغرفة مُغلقة
الباب وراءها. وعندما اختلت نادينا بزائرها تغيرت الابتسامة التي

كانت ترسم على شفيتها وقالت: رغم أننا من بلد واحد إلا أننا لن نتحدث بالروسية.

وافقها ضيفها قائلاً: سيكون هذا أفضل، طالما أن أيًا منا لا يعرف كلمة واحدة من اللغة الروسية.

ونتيجة لهذا الاتفاق شرعا يتحدثان بالإنكليزية، ولم يعد بوسع أحد الآن -وقد اختفت سلوكيات الكونت المميزة- أن يشك أن الإنكليزية ليست لغته الأم. والحقيقة أنه بدأ حياته العملية في لندن فناناً يغيّر أدواره بسرعة.

قال: لقد حققت نجاحاً باهراً هذه الليلة، أهنتك.

قالت المرأة: ولكني قلقة رغم ذلك. إن وضعي الآن ليس كما كان، فالشكوك التي ظهرت أثناء الحرب لم تُنسَ أبداً. أحسّ بمن يراقبني ويتجسس عليّ باستمرار.

- ولكن لم تُوجّه إليك أبداً تهمة الجاسوسية؟

- إن خطط رئيسنا أكثر حرصاً من أن توقعني بذلك.

قال الكونت مبتسماً: عاش «الكولونيل»! أليست مذهلة تلك الأخبار القائلة أنه يعترم التقاعد؟ التقاعد! تماماً مثل أي طبيب أو جزّار أو سمكري.

أكملت نادينا: أو كأى رجل أعمال آخر! يجب أن لا نفاجأ بهذا؛ هكذا كان «الكولونيل» دائماً... رجل أعمال رائعاً. لقد نظّم الجريمة كما ينظم المرء مصنع أحذية. لقد قام -دون توريط نفسه-

بتخطيط وإدارة سلسلة من العمليات الهائلة، ملماً بكل فرع من فروع «مهنته» إذا صح التعبير. سرقة جواهر، تزوير، تجسس (وهذه الأخيرة مربحة جداً وقت الحرب)، أعمال تخريب واغتيالات سرية... لا تكاد تجد شيئاً لم يمارسه. إنه أكثرهم حكمة ويعرف متى يتوقف، وعندما بدأت اللعبة تصبح خطيرة تقاعد موفوراً السلامة بعدما جمع ثروة ضخمة!

قال الكونت بارتياب: لكن الأمر مزعج لنا جميعاً، فنحن الآن بلا عمل.

- لكننا تسلمنا حسابنا، وبكل سخاء أيضاً!

كان في نبرتها شيء من السخرية الخفية جعل الرجل ينظر إليها نظرات حادة. كانت تبتسم مع نفسها وقد أثارت نوعية ابتسامتها فضوله، لكنه واصل حديثه بطريقة دبلوماسية: نعم، لقد كان «الكولونيل» عظيم الكرم دائماً. إنني أعزو الكثير من نجاحه لهذا السبب، وإلى خطته الثابتة في تقديم كبش فداء مناسب. إنه عقل عظيم، لا شك أنه عقل عظيم! وهو رائد المبدأ القائل: "إذا أردت لشيء أن يتم بأمان فلا تفعله بنفسك"! ها نحن جميعنا متورطون في الجريمة تماماً، ونحن في قبضته كلياً، ومع ذلك فليس بيد أي واحد منّا أي شيء يمكن أن يدينه. نعم، ليس لأحد منا نقطة ضده... ومع ذلك فالرجل العجوز يؤمن بالخرافات. أعتقد أنه ذهب قبل سنوات إلى واحدة من العرّافات اللاتي يقرأن الطالع، وقد تنبأت له بحياة مليئة بالنجاح، ولكنها أخبرته أن سقوطه سيكون عن طريق امرأة.

أثار الكونت اهتمامها الآن. رفعت بصرها متلهفة وقالت: هذا

غريب، غريب جداً! أقلت "عن طريق امرأة"؟

ابتسم ورفع كتفيه، ثم قال: لا شك أنه سيتزوج الآن بعد أن تقاعد، ربما شابة من حسناوات المجتمع تعمل على تبيير ملاينه بأسرع ممّا جمعها.

هزت نادينا رأسها وقالت: لا، لا، ليست هذه طريقة سقوطه. اسمعني يا صديقي، سأذهب غداً إلى لندن.

- ولكن ماذا عن عقدك هنا؟

- سأغيب ليلة واحدة فقط، وسوف أذهب متنكرة بحيث لن يعرف أحد أنني غادرت فرنسا. وما هو سبب ذهابي حسب اعتقادك؟

- ليس من أجل التسلية في هذا الوقت من العام. إن شهر كانون الثاني (يناير) شهر يكثر فيه الضباب البغيض! لا بد أن السفر لتحقيق منفعة، أليس كذلك؟

- بالضبط.

نهضت واقفة أمامه وكل ما فيها ينضح بالكبرياء المغرور وقالت: لقد قلت لتوك إن أحداً منّا لا يملك أي نقطة تؤخذ على الرئيس. حسناً، لقد كنت مخطئاً في ذلك، فأنا لديّ. أنا، المرأة، كان لي من الذكاء والشجاعة (نعم، لأن الأمر يحتاج إلى الشجاعة) ما جعلني أخدعه وأخونه. هل تذكر قضية ألماسات شركة دي بير؟

- نعم، أتذكرها. في كيمبرلي قبل اندلاع الحرب بقليل، أليس كذلك؟ لم تكن لي علاقة بالأمر ولم أسمع بالتفاصيل أبداً، فقد

أُخفيت القضية لسبب معين، أليس كذلك؟ كانت غنيمة كبيرة أيضاً.

- بلغت قيمة أحجار الألماس مئة ألف جنيه. لقد قمنا بها اثنين... بناء على أوامر الكولونيل بالطبع، وهناك رأيت الفرصة متاحة لي. كانت الخطة تقضي بتبديل بعض ألماسات دي بير بعينات من أحجار الألماس التي أحضرت من أمريكا الجنوبية بواسطة اثنين من المنقبين عن الألماس تصادف وجودهما في كيمبرلي في ذلك الوقت، وكان من المحتوم أن تحوم الشكوك حولهما.

تدخل الكونت معلقاً باستحسان: إنه عمل ذكي جداً.

- إن الكولونيل ذكي دائماً. لقد أنجزت مهمتي، ولكنني فعلت شيئاً لم يتوقعه الكولونيل أيضاً. لقد احتفظت ببعض الألماسات التي أحضرت من أمريكا الجنوبية، ومن السهل تماماً إثبات أنها لم تمرّ أبداً بين يدي شركة دي بير. وبوجود هذه الألماسات بحوزتي تكون لي الهيمنة على رئيسي المحترم، فبمجرد تبرئة الشابين ستبدأ الشرطة بالاشتباه بدوره في هذا الأمر. أنا لم أقل أي شيء طوال هذه السنين، فقد اكتفيت بوجود هذا السلاح بيدي لاستخدامه عند اللزوم، ولكن الأمور اختلفت الآن. أريد ثمناً لسكوتي... وسيكون ثمناً باهظاً، بل أكاد أقول «مذهلاً».

قال الكونت: أمر غريب، ولا شك أنك تحملين هذه الألماسات معك أينما ذهبت؟

جالت عيناه بهدوء في الغرفة غير المرتبة. ولكن نادينا ضحكت بهدوء وقالت: لا حاجة لأن تفترض شيئاً من ذلك، فلست مغفلة. إن الألماسات في مكان أمين لا يحلم أحد أبداً بالبحث عنها فيه.

- لم أحسبك مغفلة أبداً يا سيدتي العزيزة، ولكن هل لي أن أتجراً وأقول إنك متهورة نوعاً ما؟ إن الكولونيل ليس من النوع الذي يقبل لنفسه الابتزاز.

ضحكت وقالت: لست خائفة منه. رجل واحد فقط خفت منه في حياتي... وقد مات.

نظر الرجل إليها بفضول وقال بشكل عرضي: دعينا -إذن- نأمل أن لا يعود إلى الحياة مرة أخرى.

صاحت بحدة: ماذا تعني؟

بدا أن الكونت قد فوجئ بعض الشيء وقال: لقد قصدت فقط أن من شأن بعث الأموات أن يكون فظيماً بالنسبة لك... مجرد نكتة سخيفة.

تنهدت بارتياح وقالت: آه، لا، إنه ميت وقد شيع موتاً؛ لقد قُتل في الحرب. كان رجلاً أحبني ذات يوم.

سألها الكونت دون مبالاة: في جنوب أفريقيا؟

- نعم، بما أنك سألت. في جنوب أفريقيا.

- أي في موطنك الأصلي، أليس كذلك؟

أومأت برأسها موافقةً، ونهض الزائر وذهب لأخذ قبعته قائلاً: حسناً، أنت تعرفين أمورك أفضل مني، ولكن لو كنت مكانك لخشيت من «الكولونيل» أكثر من خشيتي من أي عاشق بائس. إنه رجل من السهل جداً التقليل من خطره.

ضحكت ضحكة استهزاء وقالت: وكأنني لا أعرفه بعد كل هذه السنين!

قال بهدوء: أتساءل إن كنتِ تعرفينه حقاً؛ أشك بذلك كثيراً.

- آه، لست مغفلة! كما أنني لست وحيدة في هذا. إن سفينة البريد القادمة من جنوب أفريقيا سترسو في ميناء ساوثهامبتون غداً، وعلى ظهرها رجل جاء من أفريقيا بناءً على طلبي بشكل خاص، وقد نفذ أوامر معينة أصدرتها له. وسوف يضطر «الكولونيل» للتعامل معنا كليناً، لا مع واحد منّا فقط.

- هل هذا من الحكمة؟

- إنه ضروري.

- هل أنت واثقة من هذا الرجل؟

ارتسمت على وجهها ابتسامة غريبة وقالت: "أنا واثقة منه تماماً. هو ليس بالكفاء، ولكنه موثوق تماماً". سكتت ثم أضافت بنبرة غير مكرثة: في الحقيقة إنه زوجي.

* * *

الفصل الأول

الجميع كانوا يطلبون مني كتابة هذه القصة مرتبة ، بدءاً بأهمهم ، اللورد ناسبي ، وانتهاء بأدناهم ، إيميلي ، خادمنا السابقة التي رأيتها في آخر زيارة لي إلى إنكلترا وقالت لي : يا إلهي يا سيدتي ! يمكنك أن تكتبي من كل هذا قصة رائعة... تماماً كقصص الأفلام!

سوف أعترف بأن لديّ مؤهلات لتنفيذ هذه المهمة ، فقد كنت على صلة بالقضية منذ بدايتها ، وكنت مشغولة بها طوال الوقت ، بل وساهمت في نهايتها أيضاً. ولحسن حظي أيضاً فقد استطعت تغطية النقص الذي لم أشهده بالاعتماد على مفكرة السير يوستيس بيدلر التي رجاني أن أستخدمها.

ها هي القصة إذن ، وها هي آن بيدنغفيلد تروي مغامراتها.

* * *

لقد أحببتُ المغامرات دائماً ، فحياتي كانت رتيبة جداً. كان والدي ، البروفسور بيدنغفيلد ، أحدَ أعظم الخبراء في إنكلترا في موضوع الإنسان البدائي. كان عبقرياً حقاً... كان الجميع يشهدون له بذلك ، وكان ذهنه يعيش في العصور الحجرية القديمة ، وكان

ما ينغص عليه حياته أن جسده يسكن العالم الحديث. لم يكن أبي يهتم بالإنسان المعاصر، بل إنه كان يزدرى إنسان العصر الحجري الحديث باعتباره مجرد راع للمواشي، ولم تكن حماسته تبدأ إلا عندما يصل لفترة العصر الحجري الأوسط!

ولعله من سوء الحظ أن لا يستطيع المرء الاستغناء تماماً عن الإنسان المعاصر، فهو مجبر على شيء من التعامل مع الجزارين والخبازين وبائعي الحليب والخضار... وبما أن أبي كان منغمساً في الماضي، وبما أن أمي ماتت عندما كنت طفلة رضيعة، فقد تعين عليّ أنا أن أتولى الجانب العملي من معيشتنا.

وبصراحة فإنني أكره الإنسان الحجري، سواء أكان من العصر الحجري القديم أو الأوسط أو الحديث أو من أي عصر آخر. ورغم أنني طبعاً وراجعت كتاب والدي «إنسان النياندرتال وأسلافه» إلا أن رجال النياندرتال أنفسهم كانوا يسببون لي الاشمئزاز، وكنت دائماً أشعر أن من حسن حظي أنهم انقرضوا في عصور سحيقة.

لا أعرف إن كان أبي قد شعر بأحاسيسي هذه أم لا. ربما لم يشعر، وعلى أي حال فهو ما كان ليهتم. لم يكن يهتم بوجهات نظر الآخرين أبداً، وأظن أن ذلك كان في الحقيقة علامة على عظمتهم. وبنفس الطريقة عاش بعيداً تماماً عن مستلزمات الحياة اليومية. كان يأكل ما يوضع أمامه بطريقة رائعة، ولكنه كان يبدو متألماً بعض الشيء عندما يأتي دفع ثمن الطعام. ولم يكن لدينا مال أبداً، فشهرته لم تكن من النوع الذي يدّر عائداً نقدياً. ورغم أنه كان عضواً في كل الجمعيات المهمة تقريباً وحمل ألقاباً كثيرة إلا أن عامة الناس

لم يعرفوا عنه إلا القليل. ورغم أن كتبه الضخمة العميقة كانت تثري المعرفة الإنسانية إلا أنها لم تكن تجذب العامة. في مناسبة واحدة فقط قفز والدي فجأة ليحتل مكاناً تحت الأضواء العامة، وكان قد قرأ بحثاً في إحدى الصحف عن صغار الشمبانزي. إن صغار الشمبانزي تشبه الإنسان أكثر مما يشبهه الشمبانزي الناضج الكبير، وقد سارعت تلك الصحيفة التجارية، «ديلي بدجيت» - وقد افتقرت إلى الموضوعات المثيرة - إلى الصدور بعناوين بارزة: "نحن لا ننحدر من القرودة، ولكن هل انحدرت القرودة منّا؟ أستاذ بارز يقول إن الشمبانزي إنسان انحط". بعد ذلك بوقت قصير جاء أحد الصحفيين لرؤية أبي وحاول إغراءه بكتابة سلسلة من المقالات الشعبية عن هذه النظرية، وقد غضب أبي غضباً نادراً ما كنت أراه منه وأخرج الصحفي من البيت بلا حفاوة، ممّا شعرت معه بالأسف في سري، لأننا كنّا بحاجة ماسة إلى المال في ذلك الوقت.

والحقيقة أنني فكرت - وقتها - بأن أركض وراء ذلك الشاب وأخبره أن والدي قد غيّر رأيه وأنه سيرسل له المقالات المطلوبة. كنت أستطيع كتابتها بنفسى بسهولة، وكان المرجح أن لا يعرف أبي أبداً بالصفقة، فهو لم يكن من قراء صحيفة «ديلي بدجيت». على أنني عرضت عن صنع ذلك لأن فيه مغامرة كبيرة، ثم وضعت على رأسي أفضل قبعة عندي وذهبت خزينة إلى القرية لمقابلة بقالنا الغاضب الذي لا يُلام على غضبه.

لقد اشتقت إلى المغامرة وإلى الإثارة، وبدا أنني قد حُكمت عليّ بأن أحيأ حياة تقديم الخدمات المملة الرتيبة. كانت في القرية مكتبة عامة مليئة بالكتب الروائية البالية، وكنت أستمتع بقصص المغامرات.

وكنت أذهب للنوم وأحلم بالرجال الأقوياء الذين «يُسقطون خصومهم من أول ضربة». ولم يَبْدُ أن أحداً في القرية يستطيع إسقاط خصمه من ضربة واحدة، أو حتى من عدة ضربات!

كانت عندنا أيضاً السينما التي تعرض حلقات أسبوعية من «مغامرات بامبلا». كانت بامبلا شابة رائعة لا يُخيفها شيء؛ تسقط من الطائرات وتغامر في الغواصات وتتسلق ناطحات السحاب وتدخل عالم الأجرام دون خوف. ولكنها لم تكن ذكية، فقد كان رئيس المجرمين يمسك بها في كل مرة، ولكن لأنه كان يبدو مشمئزاً من ضربها على رأسها ضربة قاضية ببساطة فقد كان يحكم عليها بالإعدام في غرفة الغاز أو باستخدام وسائل مبتكرة وبارعة بحيث كان البطل ينجح دائماً بإنقاذها عند بداية حلقة الأسبوع التالي.

كنت أخرج من السينما ورأسي يدور، ثم أصل إلى البيت لأجد إنذاراً من شركة الغاز يهدد بقطع الغاز عنا إذا لم ندفع الفاتورة المتراكمة!

ومع ذلك، ورغم أنني لم أكن أتصور الأمر، إلا أن كل لحظة كانت تقربّ مني المغامرة أكثر.

ربما لم يسمع كثيرٌ من الناس في هذا العالم عن اكتشاف جمجمة قديمة في منجم بروكن هيل في روديسيا الشمالية. لقد خرجت من غرفتي ذات صباح لأجد أبي مهتاجاً هتاجاً شديداً، وقصص علي القصة كلها: أتفهمين يا آن؟ إن في هذه الجمجمة -بلا شك- تشابهاً كبيراً مع جمجمة جاوة، ولكنه تشابه ظاهري... ظاهري فقط. لا، نحن هنا أمام ما كنت أردده دائماً... شكل أسلاف سلالة

نياندرتال. لماذا نُسلم بأن جمجمة جبل طارق هي أكثر جماجم نياندرتال المُكتشفة بدائية؟ لماذا؟ لأن موطن هذه السلالة كان في أفريقيا. وقد عبروا إلى أوروبا...

قلت بسرعة وأنا أمسك بيد والدي الذاهل: لا تضع المربي على السمك يا أبي. نعم، ماذا كنت تقول؟

- لقد عبروا إلى أوروبا على...

عند هذه الكلمة سكت وقد غصّ غصة كادت تخنقه بسبب لقمة فيها عظام السمك.

قال وهو ينهض بعد انتهائه من الطعام: يجب أن نبدأ على الفور؛ لا وقتَ نضيعه، يجب أن نكون في موقع الحدث. لا أشك بأن هناك الكثير من الأمور التي يمكن اكتشافها في المنطقة. سأكون مهتماً بملاحظة إن كانت الأدوات هي نفسها التي كانت مستعملة في العصر الحجري الأوسط... وأظن أن بقايا الثور البدائي ستكون هناك، ولكن ليس بقايا الكركدن ذي الصوف. نعم، لن تلبث مجموعات كبرى أن تبدأ العمل قريباً جداً. يجب أن نكون على رأسهم. هل ستكتسبن لشركة كوك اليوم يا أني؟

ألمحت له بإشارة رقيقة: ماذا عن المال يا أبي؟

نظر إليّ نظرة تأنيب وقال: إن أفكارك تصيبني بالاكئاب دائماً يا ابنتي. يجب أن لا نبخل. نعم، لا ينبغي أن يبخل المرء في سبيل العلم.

- لكنني أخشى أن تبخل شركة كوك يا أبي.

بدا والدي متألماً وقال: يا عزيزتي آن، ستدفعين لهم نقداً.

- ليس عندي أي نقد.

بدا والدي مغتاضاً جداً وقال: لن أزعج نفسي بهذه التفاصيل المالية السوقية يا ابنتي. ماذا عن المصرف؟ لقد تلقيت منهم بالأمس ما يفيد بأن في رصيدي سبعة وعشرين جنيهاً.

- أظن أن هذا المبلغ هو ما أنت مدين به للمصرف.

- آه، صحيح! اكتبي للناشرين الذين ينشرون كتبتي.

أذعنْتُ لأمره بارتياح، لأن كتب أبي كانت تحقق من المجد أكثر ما تحقق من المال.

أحببت فكرة الذهاب إلى روديسيا كثيراً، ثم رأيت في مظهر أبي شيئاً غير عادي لفت انتباهي فقلت: أنت تتعل حذاء غريباً يا أبي. اخلع الحذاء البتّي والبس الأسود بدلاً منه. ولا تنس اللفّاع حول رقبتك فالجو بارد جداً اليوم.

بعد دقائق خرج أبي يمشي متشامخاً وقد انتعل الحذاء المناسب واللفّاع. وعاد متأخراً في تلك الليلة، وقد أسفت إذ رأته عائداً دون لفاعه ومعطفه.

قال: يا إلهي! أنت على حق يا آني؛ لقد خلعتهما لكي أدخل الكهف لأن المرء يتسخ كثيراً عندما يدخل هناك.

أومأت برأسي بإشفاق وأنا أتذكر مرة عاد فيها أبي وهو ملطخ بالطين من رأسه حتى أخمص قدميه.

إن السبب الأساسي لإقامتنا في لبتل هامبسلي هو أنها قرية قريبة من كهف هامبسلي، وهو كهف مدفون مليء بآثار من العصر الحجري الحديث. كان في قرينتنا متحف صغير وكان أبي وأمين المتحف يقضيان معظم ساعات النهار في التنقيب تحت الأرض وإخراج بقايا حيوانات الكركدن الصوفي ودببة الكهوف.

سعل أبي سعالاً شديداً طوال الليل، وفي صباح اليوم التالي لاحظت ارتفاع درجة حرارته فطلبت له الطبيب.

مسكين والدي... لم تتح له الفرصة أبداً. لقد أصيب بمرض ذات الرئة، ومات بعد ذلك بأربعة أيام.

* * *

الفصل الثاني

كان الجميع لطفاء معي. وقد قدّرت لهم هذا الموقف رغم ما كنت فيه من ذهول.

لم أشعر بحزن شديد، فأبي لم يحبني أبداً. كنت أعرف ذلك جيداً، ولو أنه أحبني فربما كنت سأحبه. نعم، لم يكن بيننا حب، ولكن كلاً منا كان ينتمي للآخر، وقد اعتنيت به وأعجبت في قرارة نفسي بعلمه وإخلاصه غير المحدود للعلم، وآلمني أن يموت أبي عندما وصل اهتمامه بالحياة إلى أكبر مدى. وكنت سأشعر بسعادة أكبر لو استطعت دفنه في كهف مع رسومات حيوانات الرنة والأدوات الحجرية، ولكن قوة الرأي العام جعلتني أكتفي بقبر أنيق له (مع لوح من الرخام) في مقبرة قرينتنا الكريهة.

وقد استغرق الأمر بعض الوقت حتى اتضح أمامي أنّ الشيء الذي كنت أتوق إليه دائماً (وهو الحرية) قد أصبح الآن ملكاً لي. كنت يتيمة ومفلسة عملياً، ولكنني كنت حرّة. وفي نفس الوقت أدركت سر هذا اللطف غير العادي الذي غمرني به كل هؤلاء الناس الطيبين.

لقد حاول أحد أصدقاء أبي جاهداً أن يقنعني بأن زوجته كانت

في أمس الحاجة لمساعدة واحدة معها في البيت ، وفجأة قررت
مكتبتنا المحلية الصغيرة أنها بحاجة لمساعدة لأمين المكتبة ، وأخيراً
زارني الطبيب ، وبعد تقديمه لأعذار سخيصة مختلفة حول عدم قدرته
على إرسال فاتورة مناسبة همهم وتلعنم كثيراً وفجأة طلب الزواج بي .

ذهلت كثيراً. كان الطبيب أقرب إلى سن الأربعين منه إلى
الثلاثين ، وكان بديناً ضئيل الحجم. كان أبعد ما يكون شبهاً عن بطل
«مغامرات بامبلا» ، وفكرت دقيقة ثم سألته لماذا يريد الزواج بي .
وبدا أن سؤالي هذا قد أربكه كثيراً فتمتم قائلاً إن وجود زوجة يشكل
عوناً كبيراً للطبيب العام. وبدا موقفه بعد هذا التبرير أقل شاعرية من
ذي قبل ، ومع ذلك فقد ألح عليّ شيء في داخلي بأن أقبل عرضه .
كان الأمان هو ما عرضه عليّ. الأمان... والبيت المريح. وإني - إذ
أفكر الآن في هذا الأمر - أرى أنني ظلمت ذلك الرجل الضئيل. كان
يجبني بصدق ، ولكن رقة في غير مكانها منعتة من طرح قضيته على
هذا الأساس .

على أي حال فقد ثار حبي للرومنسية فقلت : إنه لطف كبير
منك ، ولكن لا . لا أستطيع أبداً الزواج برجل إلا إذا أحببته بجنون .

- ألا تظنين ...

قلت حازمة : نعم ، لا أظن .

تنهد وقال : ولكن ما الذي تنوين عمله يا فتاتي العزيزة؟

أجبت بلا تردد : أريد المغامرة ومشاهدة العالم .

- آنسة آن ، أنت ما تزالين طفلة تماماً. أنت لا تفهمين ...

- الصعوبات العملية؟ نعم، أفهمها يا دكتور. لست طالبة عاطفية ساذجة. إنني فتاة عنيدة سليطة اللسان، وكان من شأنك أن تعرف ذلك لو تزوجتني!

- ليتك تعيدين التفكير...

- لا أستطيع.

تنهد ثانية وقال: لديّ عرض آخر أقدمه لك. لي عمة تعيش في ويلز وتريد فتاة شابة تساعدنا. هل هذا يناسبك؟

- لا يا دكتور، أنا ذاهبة إلى لندن. إن كان من مكان تحدث فيه الأمور فهو لندن. سأبقي عينيّ مفتوحتين لأن شيئاً سيظهر! ستسمع عنيّ بعد ذلك في الصين أو في أي بلد من بلاد الدنيا.

كان زائري التالي هو السيد فليمنغ، محامي والدي في لندن. وقد جاء من المدينة خصوصاً لرؤيتي. كان هو نفسه عالم أجناس متحمساً ومعجباً جداً بأعمال والدي. كان رجلاً طويلاً هزياً بوجه نحيل وشعر أشيب، ونهض لتحتيتي عندما دخلت الغرفة وربت على يدي وهو يمسكهما بحنان وقال: طفلي المسكينة... المسكينة!

ودون رياء واع وجدت نفسي أقوم بدور اليتيمة المحرومة، فقد دفعني بسحره إلى هذا الموقف. كان عطوفاً ولطيفاً وأبويّاً... ولا يراودني أدنى شك في أنه اعتبرني فتاة مغفلة تماماً تركت على غير هدى لتواجه عالماً قاسياً. وقد شعرت من البداية بعدم جدوى إقناعه بأنني على العكس من ذلك، وأثبتت لي الأمور فيما بعد أن إحجامي عن تلك المحاولة كان أفضل.

- طفلي المسكينة! هل تعتقدين أن بوسعك الإصغاء إليّ وأنا
أحاول توضيح بعض الأمور لك؟

- آه، نعم.

- كما تعرفين: كان والدك رجلاً عظيماً جداً، وسوف تقدّره
الأجيال القادمة، لكنه لم يكن رجلاً بارعاً في أمور العمل.

كنت أعرف ذلك تماماً، إن لم يكن أفضل من السيد فليمنغ
نفسه، ولكنني امتنعت عن التعليق. واصل حديثه: لا أحسبك تفهمين
الكثير في هذه الأمور، سأحاول شرحها لك قدر الإمكان.

شرح لي شرحاً مطولاً لا ضرورة له، وبدا أن زبدة الكلام هي
أن أبي تركني أواجه الحياة بمبلغ سبعة وثمانين جنيهاً وبعض الجنيه.
بدا ذلك مبلغاً قليلاً لدرجة غريبة. وانتظرت بذعر ما سيقوله لي بعد
ذلك، وخشيت أن يكون للسيد فليمنغ عمّة في أي مكان تحتاج لفناة
شابة لمرافقتها، ولكن بدا أنه لا يملك مثل تلك العمّة.

أكمل حديثه قائلاً: إن السؤال هو المستقبل. لقد فهمتُ أنك
لا تملكين أقارب أحياء؟

قلت وقد خطر ببالي من جديد شَبْهي ببطلة أحد الأفلام: أنا
وحيدة في هذا العالم.

- هل لديك أصدقاء؟

قلت بامتنان: كان الجميع لطفاء معي.

- ومن لا يكون لطيفاً مع واحدة بهذا الشباب وهذا السحر؟

حسناً، حسناً يا عزيزتي، يجب أن نرى ما يمكننا عمله.

تردد لحظة ثم قال: ماذا لو تأتين للإقامة معنا لبعض الوقت؟

قفزت لهذه الفرصة. لندن! المكان الذي تحدث فيه الأمور.

قلت: هذا جميل منك. أحقاً أستطيع الذهاب للإقامة معكم؟
ففي الوقت الذي أدرس فيه الاحتمالات يجب أن أبحث عن عمل
أكسب منه رزقي.

- نعم، نعم يا طفلي العزيزة. أفهم ذلك تماماً. سوف نبحث
عن شيء... شيء مناسب.

أحسست غريزياً بأن آراء السيد فليمنغ فيما يخص «الشيء
المناسب» متباعدة كثيراً عن آرائني، ولكن تلك لم تكن اللحظة
المناسبة للتعبير عن أفكارني.

- إذن فقد اتفقنا. لماذا لا تعودين معي اليوم؟

- آه، أشكرك. ولكن هل السيدة فليمنغ...

- ستسعد زوجتي كثيراً بمجيئك إلينا.

أتساءل إن كان الأزواج يعرفون زوجاتهم بالقدر الذي يظنونه؟
إذ لو كان عندي زوج لكرهت أن يُحضر إلى البيت أيتاماً دون أن
يستشيرني أولاً.

أكمل المحامي: سنرسل لها برقية من المحطة.

وسرعان ما حزمت أمتعتي الشخصية القليلة. تأملت قبعتي

بحزن قبل أن أرتديها. كانت في الأصل ما أسميه قُبعة ماري، وأعني بهذا الاسم نوعية القبعة التي يجب على الخادمة أن تلبسها في يوم خروجها في إجازة... ولكنها لا تفعل! قبعة مهلهلة من القش الأسود لها حافة منخفضة انخفاضاً مناسباً. وبالهام العبقري رفستها بقدمي ذات مرة ونخستها مرتين وبعجتها في أعلاها وثبت فيها شيئاً تشكيمياً يشبه الجزرة، وكانت النتيجة جميلة تماماً. كنت قد ألقيت بالجزرة طبعاً، وبدأت الآن أخرب بقية عملي اليدوي.

عادت «قبعة ماري» إلى حالتها السابقة مع زيادة في مواقع ضربها مما جعلها تبدو أكثر إثارة للاكتئاب من قبل، فربما كان من الأفضل أن أبدو منسجمة مع المفهوم السائد عن اليتيم. كنت مرتبكة قليلاً خشية سوء استقبال السيدة فليمنغ لي، ولكنني رجوت أن يكون لمظهري تأثير مخفف للنقمة.

* * *

كان السيد فليمنغ مرتبكاً أيضاً؛ أدركت ذلك ونحن نصعد الدرج إلى البيت المرتفع في ساحة كينسينغتن الهادئ، إلا أن السيدة فليمنغ حيتني بترحاب شديد. كانت ممتلئة الجسم وهادئة من نوع «الزوجة والأم الطيبة». أخذتني إلى غرفة نوم نظيفة وتمنت أن يكون فيها كل ما أحتاجه، وأخبرتني بأن الشاي سيكون جاهزاً بعد ربع ساعة، ثم تركتني أرتب أغراضي الخاصة.

سمعت صوتها يرتفع قليلاً عندما دخلت غرفة الاستقبال في الطابق الأول. كانت تقول: "حسناً يا هنري، لماذا...". لم أسمع بقية كلامها ولكن مرارة النبرة كانت واضحة. وبعد ذلك يبضع دقائق

وصلت إلى مسامعي عبارة أخرى بصوت أكثر مرارة: أوافقك الرأي؛
فهي بالتأكيد فتاة جميلة جداً!

إنها حياة قاسية حقاً، إذ لا يكون الرجال لطفاء مع المرأة ما لم
تكن جميلة، ولا تكون النساء لطيفات معها إن كانت كذلك.

تابعت ترتيب شعري وأنا أتهد بعنق. وأنا لي شعر جميل أسود
(أسود حقيقي، وليس بنياً داكناً) يغطي أذني. عندما أنهيت تسريحتي
كدت أبدو مثل اليتيمة التي تخرج بضمفيرة وقلنسوة من النوع الذي
يُرَبط تحت الذقن ورداء أحمر.

عندما نزلت إلى الطابق الأرضي لاحظت أن السيدة فليمنغ قد
ركزت نظرها على أذني المكشوفتين بنظرات لطيفة تماماً. أما السيد
فليمنغ فبدأ مرتبكاً، وليس عندي شك أنه كان يقول في قرارة نفسه:
ما الذي فعلته الطفلة بنفسها؟

إجمالاً انقضت بقية اليوم على أحسن ما يرام، واستقر الأمر
على أن أبدأ بالبحث عن شيء أفعله على الفور.

عندما ذهبت إلى النوم نظرت إلى وجهي في المرأة نظرات
جادة. أكنت حقاً جميلة؟ بصدق فإنني لا أستطيع القول إنني أرى
ذلك! لم يكن عندي أنف إغريقي مستقيم أو فم وردي صغير أو أي
شيء من الأشياء التي يجب أن تكون عند الفتاة الجميلة.

كنت أفضل كثيراً أن تكون لي عينان زرقاوان أيرلنديتان بدلاً من
العينين الخضراوين الداكنتين المرقطتين بالأصفر! ومع ذلك فاللون
الأخضر جيد للمغامرات.

لففت ثوباً أسود حولي بإحكام ثم مسّطت شعري فوق أذني
مرة أخرى، وأخيراً لففت كتفي بشريط أحمر وغرست ريشة قمرزية
على شعري... النتيجة أفرحتني كثيراً.

قلت بصوت مرتفع وأنا أومئ برأسي لصورتني في المرآة: آن
المغامرة. الحلقة الأولى: «بيت كينسينغتن».

حقاً إن الفتيات سخيفات!

* * *

الفصل الثالث

في الأسابيع التالية أحسست بممل كبير. بدت لي السيدة فليمنغ وصديقاتها ممالات جداً؛ كُنَّ يتحدثن لساعات عن أنفسهن وأطفالهن والصعوبات التي يواجهنها للحصول على حليب جيد للأطفال وعمما يقلنه لشركة الألبان عندما لا يكون الحليب جيداً، ثم يعرجن للحديث عن الخدم وصعوبات العثور على خدم جيدين وعمما قلنه للموظفة في مكتب تشغيل الخدم وعمما قالته الموظفة لهن...

لم يَبْدُ أنهن يقرأن الصحف أبداً أو يعتنين بما كان يحدث في العالم. كُنَّ يكرهن الأسفار لأنهن يجدن فيها كل شيء مختلفاً عن إنكلترا، ولكن كانت الريفيرا لا بأس بها بالطبع لأن المرء يلتقي فيها بجميع أصدقائه.

كنت أصغي إليهن وأكبح عواظني بصعوبة. كانت غالبية أولئك النسوة ثريّات، وكان العالم الواسع الجميل كله ملكاً لهن يستطعن التجول فيه، ومع ذلك كُنَّ يفضلن البقاء في لندن القذرة المملة ويتحدثن عن بائعي الحليب والخدم!

وعندما أتذكر الماضي الآن أرى أنني ربما كنت قليلة التسامح

نوعاً ما، ولكنهن كن غيبات بالفعل... غيبات حتى في عملهن الذي اخترته: فقد كانت لمعظمهن حسابات منزلية يُجرينها بشكل غريب جداً ومهلل إلى أبعد حد.

لم تتقدم شؤوني الخاصة بسرعة كبيرة، فقد بيع البيت والأثاث، ولم يكد الثمن يكفي إلا للوفاء بديوننا فحسب. وحتى ذلك الوقت لم أوفق في الحصول على وظيفة... دون أن يعني ذلك أنني أردت بحق العثور على وظيفة! فقد كان لدي كل الاقتناع بأنني إذا ذهبت أبحث عن مغامرة فإنني سأجدها في وسط الطريق.

إن نظرتي هي أن المرء يحصل دائماً على ما يريده، وكانت نظرتي توشك أن تُثبت عملياً.

كان ذلك في بداية شهر كانون الثاني (يناير)، بل في الثامن منه توخياً للدقة. كنت عائدة من مقابلة غير موفقة مع سيدة قالت إنها تريد سكرتيرة مُرافقة، ولكن بدا -في الواقع- أن ما تطلبه هو خادمة تنظيف قوية تعمل اثنتي عشرة ساعة في اليوم مقابل خمسة وعشرين جنيهاً في العام! وبعد أن تركتها ونحن نتبادل كلاماً مُبطناً غير مؤدب مشيت في شارع إدجوير (فقد جرت المقابلة في بيت في منطقة سينت جون وُد) ثم عبرت حديقة هايد بارك إلى شارع مستشفى سينت جورج. وهناك دخلت محطة قطار الأنفاق عند زاوية هايد بارك، واشترت تذكرة توصلني إلى محطة طريق غلوستر.

عندما وصلت إلى الرصيف (داخل محطة الأنفاق) مشيت حتى آخره. كان عقلي الفضولي يريد أن يقنع نفسه إن كانت هناك حقاً محوّلات للسكة الحديدية وفتحة بين النفقين بعد المحطة مباشرة

في اتجاه شارع داؤن، وقد تملكني سرور أحرق إذ اكتشفت أنني كنت على صواب.

لم يكن على الرصيف الكثير من الناس، وفي نهايته كنت أقف أنا ورجل واحد فقط. وبينما كنت أمرّ بجانبه أخذت أشتمُّ بارتياب، فلئن كانت توجد رائحة لا أطيقها فهي رائحة كرات نفتالين العث، وكان المعطف الثقيل لذلك الرجل يعبق بتلك الرائحة.

كان معظم الرجال قد بدؤوا بارتداء معاطفهم الشتوية قبل بضعة أشهر، لذلك كان ينبغي لرائحة النفثالين أن تكون قد تلاشت بمرور هذا الوقت. كان الرجل يقف أبعد مني قريباً من حافة النفق، وبدا غارقاً في التفكير، وكان يمكنني التحديق إليه دون أن أبدو وقحة. كان نحيلاً ضئيل الجسم ذا وجه بني داكن وعينين زرقاوين، وكانت له لحية سوداء صغيرة.

استنتجت في نفسي: لقد جاء لتوّه من الخارج... هذا هو سبب الرائحة التي تفوح من معطفه. لعله جاء من الهند، لكنه ليس ضابطاً بالجيش، وإلا لما كانت له لحية. ربما يعمل في زراعة الشاي.

في تلك اللحظة استدار الرجل وكأنه يعود أدراجه على الرصيف من حيث أتى. نظر إليّ نظرة عابرة ثم وقعت عيناه على شيء ورائي فتغير وجهه، تقلص وجهه خوفاً... بل كاد يكون ذعراً. تراجع خطوة إلى الوراء وكأنه يتقبّض عفويّاً تفادياً لخطر، ناسياً أنه كان يقف في أقصى طرف الرصيف، فسقط وانقلب. صدرت عن السكة التماعة ضوء قوي وصوت طقطقة. وصرختُ فجاء الناس مسرعين، وخرج اثنان من مسؤولي المحطة من حيث لا أدري وتوليا الأمر.

بقيت حيث كنت، مشدودةً إلى المكان بشيء من السحر
الرهيب. كان جزء مني مرتاعاً من هول الكارثة المفاجئة، في حين
كان الجزء الآخر مهتماً ببرود بالطريقة التي استخدمت لرفع الرجل
عن السكة وإعادته إلى الرصيف.

- دعوني أمرّ، أرجوكم... أنا طيب.

اندفع رجل طويل بلحية بنية اللون من جانبي وانحنى فوق
الجسد الهامد، وفيما هو يفحصه بدا أن إحساساً غريباً بعدم الواقعية
يتملكني. لم يكن الأمر حقيقياً... لا يمكن أن يكون كذلك. وفي
النهاية نهض الطبيب وهز رأسه قائلاً: لقد مات وشبع موتاً. لا يمكن
فعل شيء.

كنا قد تجمعنا كلنا واقترنا أكثر، ورفع حمّالٌ حزين صوته
قائلاً: أرجو أن تتراجعوا إلى الوراء. ما معنى التجمع حوله؟

تملكني غثيان مفاجئ، واستدرت على غير هدى وأسرعت
أصعد الدرج ثانية نحو المصعد. أحسست أن الأمر كان مرعباً جداً
ويجب أن أخرج إلى الهواء الطلق. كان الطبيب الذي فحص الجثة قد
سبقني تماماً، وكان المصعد على وشك أن يصعد فانطلق يركض،
وعندما انطلق أسقط ورقة صغيرة.

وقفت والتقطتها وركضت وراءه، ولكن بوابة المصعد أغلقت
في وجهي، وبقيت ممسكة بالورقة بيدي. وعندما وصلت بالمصعد
إلى الطابق الثاني، حيث مستوى الشارع، لم أجد للرجل أي أثر.

تمنيتُ أن لا تكون الورقة التي فقدها ذات أهمية، ثم فحصتها

لأول مرة. كانت قصاصة عادية من ورق الملاحظات خُربشت عليها بعض الكلمات والأرقام بالقلم الرصاص. هذه صورة عنها:

١٢٢, ١٧ كيلموردن كاسل

من المؤكد أنها لم تَبْدُ -ظاهرياً- ذات أهمية، ومع ذلك ترددت في إلقائها. وبينما كنت أقف هناك أحملها بيدي فركتُ أنفي لإرادياً باشمئزاز... إنها رائحة النفتالين ثانية! رفعت الورقة إلى أنفي وشممتها بتقزز. نعم، كانت رائحتها رائحة نفتالين قوية. ولكن...

طويت الورقة بعناية ووضعتها في حقيبي ومشيت إلى البيت ببطء أفكر طوال الطريق.

أوضحت للسيدة فليمنغ أنني شهدت حادثاً مروّعاً في نفق القطار وأني متضايقة وأريد الذهاب إلى غرفتي لكي أستلقي قليلاً.

أصرت المرأة الكريمة على أن أشرب فنجاناً من الشاي، وبعد ذلك تركتني أذهب لشأني، وعندها شرعت في تنفيذ خطة وضعتها وأنا عائدة في طريقي إلى البيت. أردت أن أعرف ما الذي سبب ذلك الإحساس الغريب بعدم الواقعية الذي شعرت به وأنا أراقب الطبيب وهو يفحص الجثة. في البداية استلقيت على الأرض متخذة وضع الجثة، ثم وضعت وسادة بدلاً مني وبدأت -حسب أفضل ما أذكره- تقليد كل حركة وإيماءة قام بها الطبيب. وعندما انتهت كنت قد حصلت على ما أردته.

نشكرك على الاهتمام بمنشوراتنا، ونأمل
أن تكون الصفحات التي قرأتها قد وفّرت
لك قراءة ممتعة وعرفتك بالرواية.

يمكنك شراء نسخة ورقية من هذه الرواية
(وسواها من الروايات) من موقعنا مباشرة،
ونرجو عدم التردد بالاتصال بنا لو
احتجت لأي مساعدة.

الأجيال

www.al-ajyal.com